

ومن يرغب في نهدئة إنسان ملتاع^(١) وخاضب لموت عزيز عليه ، فليقل له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : « لا » .

إذن : فبمجرد أن ينزع الله سبحانه السر الذي به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يرم^(٢) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل «مدين» :

﴿كَانَ لَرِيقِنَا فِيهَا^(٣) الْآلَاءُ^(٤) بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ نَعْمُودُ^(٥)﴾

أى : أن من يمر على أهل «مدين» بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود .

والحق سبحانه يقول :

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا .. ﴿٦٦﴾﴾

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر .

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حرقه الحزن والهوى والوجد ، وهى أيضاً ما يجده الإنسان لولده وحبيبته من الحرقه وشلة الحب . [انظر اللسان - مادة : لوع] .

(٢) الرميم : البالي من كل شئ . رم الميت : بلى جسده ، قال تعالى : ﴿ .. مِنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) [يس] والوعة : العظم البالي . [لسان العرب ، القاموس القويم مادة : رم] .

(٣) غنى القوم فى ديارهم : طاق مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا فِي دِيَارِهِمْ جَالِسِينَ ﴾ (٤٤) كان لم يبقوا فيها .. ﴿ (٤٥) ﴾ [هود] [القاموس القويم مادة : غنى] .

(٤) آلاء بعداً وبعداً : هلك . قال تعالى : ﴿ .. الْآلَاءُ لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ نَعْمُودُ ﴾ (٤٥) [هود] أى : هلاكاً لمدين كما هلكت نمرود . [القاموس القويم : مادة : بعد] .

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخلوم ، وهي غير الجنة التي ينال فيها الإنسان ما يشتهي بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

[هود] ﴿كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا .. (٩٤)﴾

ومادة «الغنى» منها : الغناء - بكسر الغين - وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدي إلى الشيء الذي يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكفى عما في أيدي الناس .

وهكذا الغناء ؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقراً كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكلام الذي يحبه ، والمثلن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذي يغنيك عن غيره .

والغناء ، أى : الإقامة فى مكان إقامة تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : يقول الحق سبحانه :

[هود] ﴿كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا^(١) فِيهَا .. (٩٥)﴾

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أى مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

[هود] ﴿.. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ^(٢) (١٠٠)﴾

(١) ضى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿فَأَسْتَبْرَأُ إِلَى دِيَارِهِمْ حَاتِبِينَ (٩٤)﴾ كَانَ لَمْ يَغْتَوْا فِيهَا .. (٩٥) [هود] وقد غنيت الدار بأهلها : عَمَّرْتُ بِهِمْ . قال تعالى : ﴿فَيَسْقَاطُ حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقْنِ بِالْأَمْثِ

.. (١٠٠) [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم : مادة «غنى»] .

(٢) قائم : اسم فاعل من قام . قال تعالى : ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي إِلَى الْمَغْرَبِ .. (٩٩)﴾ [ال عمران] وقوله تعالى : ﴿فَبِكَذَاكَ يُقَرَّبُ عَلَىكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠)﴾ [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عطر بأهله كالزروع ، ومنها ما هلك فصار كالزروع الحصيد . [القاموس القويم : مادة «قوم»] .

أى : أن الأطلال ^(١) قائمة بما نحتويه من أحجار ورسوم ^(٢) ، مثل معابد قدماء المصريين ، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة ، بل تجد عموداً متصباً ، وآخر ملقى على الأرض ، وباباً غير سليم ، ولو كانت كلها حصيداً ، لا خفت تماماً ، ولكنها بقايا قائمة ، ومنها ما اندثر ^(٣) .

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات ، لأنها لو ذهبت كلها ؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. أَلَا بَعْدُ لِمَدَيْنَ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ (١٥)

[هود]

وكلمة «ألا» - كما عرفنا من قبل - هى «أداة استفهام» ليلفت السامع وينصت ، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم ، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد .

وكلمة «بَعْدُ» ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد ؛ لأنها هلكت بالفعل ، ومادة كلمة «بَعْدُ» هى : «الباء» و«العين» و«الدال» ونستعمل استعمالين : مرة تريد منها الفراق ؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها :

﴿ .. كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ (١٥)

[هود]

وهى تدل على أنه بعد لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة .

(١) الأطلال : جمع ظل ، وهو ما شخص من آثار الديار القديمة . وقيل : ظل كل شيء شخصه . [انظر : لسان العرب] .

(٢) الرسوم : جمع الرسم . وهو بقية الأثر . وقيل : هو ما لصق بالأرض منها . ورسم الدار : ما كان من آثارها لاحقاً بالأرض .

(٣) اندثر : الدروس وأمعاه الذكر ، وكل شيء أعمى وذهب أثره فقد دثر . [اللسان بتصرف] .

سورة هود

٥٦٤٧

والشاعر^(١) يقول:

يَقُولُونَ لَا تَبْعِدْهُمْ يَدْفِنُونَنِي وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا

فهذا هو البعد الذي يذهب إليه الإنسان ولا يعود^(٢).

ولماذا خصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا ؟ وقد سبق أن قال سبحانه عن أقوام آخرين: «ألا بعداً؟»

لأن الصيحة قد جاءت لثمود^(٣)، وبذلك اتفقوا في طريقة العذاب.

وتنتهي هنا قصة شعيب عليه السلام مع ملين، ونلاحظ أن لها مساساً برسل مثل موسى عليه السلام، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام.

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت، أي: أن كل واحد منهم أرسل إلى بيثة معينة ومكان معين. ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم؛ لذلك أرسل لكل بيثة رسلاً يناسب منهجه عيوب هذه البيثة.

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام. وقد ذهب موسى إلى أهل ملين قبل أن يرسله الله إلى فرعون.

(١) الشاعر هو: مالك بن الربيع المازني، شاعر من الظرفاء الأدباء القشك، اشتهر في لوائيل العصر الأموي، شهد فتح سمرقند وتنسك ومرض في مرو وأحس بالموت فقال قصيدته التي منها هذا البيت وعندها ٥٨ بيتاً أوردها أبو علي الفارسي كاملة في أماليه (١٥١/٣ - ١٥٤) توفي عام ٦٠ هجرية. انظر الأعلام للزركلي (٢٦١/٥).

(٢) البعد: الهلاك. بعد: هلك. فقول تعالى: ﴿... أَلَا بُعْدُ لِمَن كَانَ بِعَدَتِ ثَمُودَ (٢٢)﴾ [هود] أي: هلاكاً لملين كما هلكت ثمود. والبعد: غلاب القرب، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ (٥٥)﴾ [الزخرف] أي: مقدار بعد أحدهما من الآخر. [القاموس القويم].

(٣) قال رب العزة سبحانه: ﴿فَالْمُثَرَّدُ فَأَمَّا لُوطُ بِالْطَّاغُوتِ (٢٤)﴾ [الحاقة] أي: أهلكوا بالصيحة التي تجاوزت الحد في قوتها. والطغيان: تجاوز الحد، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَ لَوْ كُنَّا ظُفُرًا الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجِبَابِ (١١)﴾ [الحاقة] أي: زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد. [القاموس القويم ١/٤٠٢].

ونحن نعلم أن الأماكن في الأزمنة القديمة كانت متعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش في موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى .

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه أولاً أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات .

فما يحدث الآن في أي مكان في العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية في ثوانٍ معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ .

أما تعدد الرسل وتعدد اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحون ؛ لأن الأصل في القصص القرآني أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحي لتناسب الموقف الذي يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت للفؤاد^(١) .

ويبين الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم في النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوبة جاء بسورة يوسف .

وهكذا فليس في القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها في تثبيت الرسول ﷺ .

ولنا أن نلاحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهي إلا بأن تأتي فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَلَّا لَنُقْرِئُكَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَقَّبْتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَسُورَةٌ يُذَكِّرُكَ لِلْعَزْمِ ﴾ [هود] . ثبت الأمر : رسخ واستقر عند نزول واضطرب . ويقول تعالى : ﴿ بَلِّغْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ .. ﴾ [الرعي] أي : يقوى إيمانهم بالقول الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذلك ثبت معلوم . [راجع : الفاروس الغريب ١/ ١٠٥] .

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى ﷺ لقطعتين :
اللقطة الأولى : هي الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية : هي خاتمة فرعون لا مع موسى ﷺ ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَرْدَهُمُ النَّارُ وَفِى السَّيْرِ الْمُرُودُ (٦٨) وَأَتَّبِعُوا لِي هَذِهِ لَعْنَةُ رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى السَّيْرِ الْمُرُودُ (٦٩) ﴾ [هود]

وكان لشعيب ﷺ مهمة تثبيت قلب موسى ﷺ من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب ﷺ ما ذكره الحق سبحانه فى قوله :

﴿ .. نَجَّوْتِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٥) ﴾ [القمر]

وهكذا ثبتته وهياً له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثمانى حجج أو أن يتمها عشر حجج^(١) ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ إِنِّى أَرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصاص]

(١) الحجة - بكسر الحاء - : السنة الكاملة اثنا عشر شهراً ، وجمعها : حجج . قال تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصاص] أى : ثمانى سنوات كاملة . [القاموس القويم] .
(٢) أجر فلان فلاناً أجراً : أثابه على عمل أو صبار أجيراً له ، وبالأوجهين فسر قوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصاص] وسمى المهر أجراً مجازاً . وقال تعالى : ﴿ فَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ (٢٧) ﴾ [النساء] أى : مهووهن . وقال تعالى : ﴿ فَفَهْ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (٢٧) ﴾ [البقرة] أى : ثواب عمله . [القاموس القويم ١/٨] .

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة في قصة موسى عليه السلام.

ومن هذا ومن ذاك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنيات قد نلتقى مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قنن الحق سبحانه الطلاق في الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى خير مسلمة بعد أن عانت مرَّ المعاناة.

ومثلما حرم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نوجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك النتائج؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل في القرآن قانون السماء الذي يقى الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذي أنزل القرآن سبحانه هو الذي خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى في كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه .

وفي قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فيها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرّة عين له ^(١) ، رغم أن فرعون كان يُقتل أطفال تلك الطائفة ^(٢) .

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه ^(٣) .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْئُوتُ هَٰذَا وَلَوْلَا اَنْ يَّقْبَلُوْهُ عَسَىٰ اَنْ يَّخَذُوْهُ وَاَلَا اِنَّهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ (٢٥) [القصص] .

(٢) قال تعالى : ﴿ اِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْاَرْضِ وَجَعَلَ اَهْلًا لِهَا شُعْبًا يَنْسَحِبُوْنَ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَصِيحُ بِاَنَاءِهِمْ وَيَسْتَخِفُّ نِسَاءَهُمْ اِنَّهٗ كَانَ مِنَ الْمَقْتُلِيْنَ ﴾ (٢٦) [القصص] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَکَ اَمْرًا مُّوسٰی فَاَوْفَا اِنْ کُلَّمَا اُنْذِرْکَ بِهٖ نَوَلٰۤا اَنْ رَّیْبًا عَلٰی قُلُوبِهَا لَیْکُوْنَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ (٢٧) وَقَالَتِ لَآخِذْهُ فَعَصٰی فَمَضَتْ بِهٖ عَنْ جَنِّبِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ (٢٨) وَخَرْنَا عَلَیْهِ الْمَرٰثِمَ مِنْ قَبْلِ فَعَالَتِ هَلْ اَدَّٰکُمْ عَلٰی اَهْلِ بَیْتٍ یَّکْفُلُوْنَهٗ لَکُمْ وَهُمْ لَا یُلَاصِحُوْنَ (٢٩) فَرَدَدْنَاهُ اِلٰی اُمِّهٖ کِی تَرْضٰ عَیْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا اَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَلٰکِنْ اَکْثَرُهُمْ لَا یَعْلَمُوْنَ (٣٠) [القصص] .

سُورَةُ هُودٍ

٥٦٦٥١

وقد صورَّ الشاعر هذا الموقف بقوله :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ فِي بَيْتِكَ عِتَايَةَ

مِنْ اللَّهِ فَقَدْ كَذَّبَ الرَّاجِي وَخَابَ الْمَأْمُلُ

فَمُوسَى ^(١) الَّذِي رَبَّاهُ جَبْرِيلُ كَافِرٌ

وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة ، في البداية وفي النهاية ؛ ليبين لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من الرسل ، وهو موسى عليه السلام.

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث - هو ماء مدين ، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين - الرجل والمرأة - وهي رأس الحرية التي تُوجِّه إلى المجتمعات الإسلامية ؛ لأن البعض يريد أن تبدل المرأة في مفاتيحها ، لإغواء الشباب في أعر أوقات شراسة المراهقة .

لكن القرآن حلَّ هذه المسألة في رحلة بسيطة ، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ

أَمْرَاتَيْنِ تَذْوَدَانِ ^(٢) .. (٢٣) ﴿

[الفحص]

أى : تمنعان الماشية من الاقتراب من الماء ، وكان هذا المشهد ملقناً لموسى عليه السلام ، وكان من الطبيعي أن يتساءل : ألم تأتيا إلى هنا لتسقى الماشية ؟ وقال القرآن السؤال الطبيعي :

(١) موسى السامري الذي رباه جبريل خالف أمر ربه بقتلة ، فزول اجتصاباً وكذب على العذاب ، بخلاف موسى الرسول عليه السلام .

(٢) ورد يرد وورداً : حضر أو أشرف على المكان - دخله أم لم يدخله . وورد الماء : قصده وبلغه ووصل إليه . واسم الفاعل منه : وارد ، واسم المفعول : مورود . [القاموس القريم] .
أمة من الناس : جماعة كثيرة منهم - [كلمات القرآن للشيخ حسين مخلوف] .
تذودان : تمنعان أغنامهما عن الماء . [كلمات القرآن] .

[القصص]

﴿ مَا خَطْبُكُمَا ^(١) .. (٢٣) ﴾

فتأتيه الإجابة من المراتين:

﴿ قَالَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَلَّى الرِّعَاءُ ^(٢) وَأَهْوَنَّا شَيْخٌ ^(٣) كَبِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له حلة أن الأب شيخ كبير ، وأن خروج المراتين لم يكن بغرض المزاحمة على الماء ، ولكن بسبب الضرورة ، وانتظرتا إلى أن يسقى الرعاة ، بل ظلتا محتجبتين بعيداً ؛ لذلك تقدم موسى ﷺ لهما من مهمة الرجل :

[القصص]

﴿ فَسَقَى لَهُمَا .. (٢٥) ﴾

وهذه خصوصية المجتمع الإيماني العام ، لا خصوصية قوم ، ولا خصوصية قري ، ولا خصوصية أهل ، بل خصوصية المجتمع الإيماني العام .

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل ، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك ، فيقضى الرجل المسلم لها حاجتها .

وأذكر حين ذهبت إلى مكة في عام ١٩٥٠م أن نزل صديقي من سيارته أمام باب منزل ، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التي لم تخبز بعد ، وذهب به إلى المخبز ، ثم عاد به بعد خبزه إلى

(١) ما خطبكما: ما شأنكما ؟ أو ما مظهركما ؟ . [كلمات القرآن].

(٢) يصلو الرعاة: يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء . [كلمات القرآن].

والصلور: الرجوع والانصراف . يقال: ورد إلى البئر ثم صلب عنها لئ: رجع . وصلى دوابه: أرجعها بعد ورودها . [القاموس القويم].

(٣) شيخ الإنسان يشيخ: أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن ، ويطلق الشيخ على من جاوز الخمسين من عمره . وله جموع كثيرة منها: أشياخ ، وشيوخ ، وشياخ ورد منها في القرآن جمع واحد هو: شيخ . قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لِيَقُولُوا اتَّبَعْنَا لَمْ نُكُونُوا شُوعًا .. (٢٥) ﴾ [ذائق] . [القاموس القويم ١/ ٣٦٢].

سُورَةُ هُودٍ

٥٢٦٦

نفس الباب . وقال لى : إن هذه هى عادة أهل مكة ، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز؛ فعليه أن يفعل ذلك؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعنى أن الرجل رب البيت غائب .

وهذا كله مأخوذ من كلمة :

﴿ فَسَقَى لَهُمَا .. (٢٤) ﴾

[القصص]

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لنسأل أهل البيوت من حاجاتهم .

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التى تخرج إلى مهمة عليها ألا تستمرى^(١) ذلك ، بل تأخذها على قدر الضرورة ، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة ، فعليها أن تسارع إلى هذا المنفذ ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب :

﴿ .. يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) ﴾ [القصص]

ويُنهى شعيب رضي الله عنه هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً ، فيقول لموسى :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ

فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ .. (٢٧) ﴾

[القصص]

وهكذا يعلم موسى - عليه السلام - أن شعيباً لا يلقى بابتته هكذا دون مهر^(٢) ،

(١) استمرى الطعام : وجده مريباً أى : جيداً مستساغاً . واستمرى الشيء : أحبه واستزاد منه . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) للهر : الصداق ، والجمع : مهر . وهو الصدقة جمعها صدقات . قال تعالى : ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً (٤) ﴾ [النساء] . قال فى فقه السنة (٢/٢١٨) : «لم تجعل الشريعة حداً لقلته ، ولا لكثرتها ، إن الناس يختلفون فى الغنى والفقر ، ويتفاوتون فى السعة والضيق ، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها ، وكل النصوص جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة ، يقطع النظر عن القلة والكثرة ، ويجوز تعجيل الهر وتأجيله ، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم .

لا .. بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه ^(١) .

وهذه القصة وضعت لنا مبادئ تحل كل المشكلات التي يتشدد بها خصوم الإسلام .

وها نحن نجد في الغرب صحبات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء في المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال المرأة في أداء أسمة مهمة توكل إليها ، وهي تربية الأبناء .

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في كل الكائنات ، والأبناء الذين يتشاون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم .

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ^(١٦) ﴾

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت في القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء :

آيات كونية تعاصر كل الناس ويرها كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والتجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت

(١) الجمع بين الأختين من المحرمات محرمات مؤقتاً ، يزول التحريم بزوال أسبابه ، وذلك بطلاق الأخت طلاقاً باتناً وبعد انقضاء عدتها ، والحالة الثانية هي وفاتها ، ودليل هذا التحريم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ .. ﴾ [٢٦] إلى قوله : ﴿ .. وَأَنْ تَجْعَلُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء] . وانظر لقه السنة (١٦٩/٢) .

(٢) سلطان مبين : برهان بين على صدق رسالته ، كلمات القرآن . والسلطان : الملك والقوة والقهر والجمعة والبرهان . يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ .. ﴾ [النحل] أي : قهر الشيطان وغلته وتسلطه على الذين يتولونه ويتبعونه ، وقال تعالى : ﴿ هَلْكَ هَبَىٰ سُلْطَانُهُ ﴾ [الحاقة] أي : قوتي زالت وغلبي وقهري فلا أستطيع الدفاع عن نفسي . (القاموس القويم) .

سُورَةُ هُودٍ

٦٦٥٥

وريت^(١) ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر في آن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر .

وهناك آيات تأتي لبيان صدق الرسول في البلاغ عن الله ، وهي المعجزات مثل : ناقة ثمود المبصرة^(٢) ، وشفاء عيسى عليه السلام^(٣) للأكمة والأبرص^(٤) بإذن الله .

ثم آيات الأحكام التي تبين مطلوبات المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» .
وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٦) ﴾ [مرد]

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حجة تنفع العقل .

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يفهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قلوباً ؛ لذلك قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ نَعْلَمُكَ بِأَخِي^(١) نَفْسِكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢) إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

(١) يقول تعالى : «... ونرى الأرض حامدة لهذا لنزلنا عليها الماء انصرفت وريت وأنبت من كل درج بهيج (١٥) » [الحج] . فأي : فإذا أنزل الله عليها المطر انصرفت أي تحركت بالنبات وحببت بعد موتها ، وريت أي : لم تضعت ، ثم أنبت ما فيها من الألوان والقنون من ثمار وزروع ، قاله ابن كثير في تفسيره (٢٠٨/٣) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ لَعْنُوا الْفَاقَةَ مَبْصُورَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (٢٥) ﴾ [الإسراء] .

(٣) قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَخْبَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٥) ﴾ [آل عمران] . والأكمة : أن يولد أعمى ، أو يفقد بصره ، والأبرص : من أصابه مرض جلدي يحدث جعاً يضاء في الجلد تشوّهه [القاموس القويم] .

(٤) يخبر نفسه بخملاً ويخوفاً : قتلها هماً وخيفاً وحزناً . قال تعالى : ﴿ فَظَلَمْتَ أَخِي نَفْسَكَ عَنِ الْقَوْمِ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٥١) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ فَظَلَمْتَ أَخِي نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٤٥) ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم ١/ ٥٦] ينصرف .

إذن: فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب ، قلوب تأتي إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه .

لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجّة ، لأنه يفتح الإنسان أن يفعل . . ولم يكن لموسى عليه السلام سلطان من القوة ليظهر ، بل كان له سلطان الحجّة ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

فيرد عليه فرعون :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف]

وبياض اليد مسألة ذاتية في موسى عليه السلام ، وطارئة أيضاً ، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً ، بل دليل الاحتياط في قوله تعالى :

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ۗ ﴾ (١٠٩) [طه]

أما العصا فهي الحجّة التي دفعت فرعون إلى أن يأتي بالسحرة ، ليغلبهم موسى أمام الفرعون والملا ، فينتج السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهارون .^(١)

(١) حقيق على أن : حريص على أن ، أو علق بأن . [كلمات القرآن] .

(٢) مبين : أى : ظاهر أمره لا يشك فيه . [كلمات القرآن] .

(٣) ونزع يده : أخرجهما من طوق قميصه . بياض : قلب شعاعها شعاع الشمس . [كلمات القرآن] .

(٤) إلى جناحك : إلى جنبك تحت المعبد الأيسر . [كلمات القرآن] .

(٥) قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُدًّا فَأَلَوْا أَنَّهُمْ بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (١١٠) [طه] .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى ﷺ بتسع آيات هي :
العصا التي تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير
سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص في الأنفس والثمرات ، لأن
الجذب يمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق
سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع ، هذه هي
الآيات التسع ^(١) التي أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم
إيمانهم برسالة موسى ﷺ .

وهناك آيات أخرى أرسلها الحق سبحانه ليقوم موسى بواسطة موسى
 (عليه السلام) في تنقي الجبل (٢٧) ، وضرب البحر بالعصا (٢٨) ، ثم ضرب الحجر
 بالعصا لتتجرأ عشرة (٢٩) عينا ، وكذلك نزول التوراة في ألواح (٣٠) .

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى سِتْرَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ فَمَسَّاهُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ۖ﴾ (الإسراء: ٩٥) . وقال تعالى: ﴿فَإِذْ هِيَ نَارُ سَبْعَ آيَاتٍ تَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ فَآخِذُوا بِهَا بِهَافَاتٍ لَهَا قُرُونٌ﴾ (الأعراف: ١٥٥) . وقال تعالى: ﴿وَأَجَلٌ يُدْرِكُ فِيهِ مِجْسَاتُ أَنْجَارٍ مِنْ غَيْرِ سَودٍ فِي سِتْرِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ﴾ (الأنعام: ٦١) . وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ الْمُرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٢٢) فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن نصيبهم سيئة هَلْ يُؤْمِنُونَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنْسَانٌ مَقَلَّ لَهُمْ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٢٣) وقالوا مهملنا تأتينا به من آية لم نسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (١٢٤) فلو سلطنا عليهم أَوْفَرَانِ وَالْجُرَادِ وَالْقَبْلِ وَالْحَفَافِ وَالْدم آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٢٥) ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَنْ كُنْضُفَ عَمَّا الرِّجْزِ نَقُودُ لَكَ وَلَوْ سَلَطْنَا مَعَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ (١٢٦) لَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ الرِّجْزَ (إِنِّي أَسْأَلُكُمْ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ (١٢٧) فَانْقَضَتْ عَنْهُمْ فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ فِي الْيَوْمِ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٢٨)﴾ (الأعراف: ١٢٨) .

(٦) قال تعالى: ﴿وَأَن تَقَاسَمُوا بِالْجَبَلِ فَأَن يُكَذِّبَنَّكُمْ فَيُضِلُّكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (الأعراف: ١٧٧). ونسفه: رفعه من مكانه وحركه وحذبه. [الفاوس للقويم].

(٣) قال تعالى: ﴿فَأَوْخِثْنَا إِلَىٰ مِوَسِيٍّ إِذَا خِشِبَ يَبْعَثُهُ الْحَبْرَ فَنَمْطِقِ فَأَنْفِقْ فَكَانَ كُلُّ لَبْوَةٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٤٠٨].

(1) قال تعالى: ﴿ثَلَاثًا اضْرِبْ بِعَاقِلِ الْهِمِّرِ لَا تَمِيزُ مِنْهُ ثَلَاثًا عَشْرَةَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ [البقرة].

(١) قال تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُ بِالنُّجُومِ مِنْ كُلِّ فُجَاءٍ مُنْقِطَةً﴾ (الأعراف: ٥٤) والأكوام: جعم لوز.

وعو الصفحة المريضة من خشب أو غيره يكتب عليه: [القمامة من الفوم ٢٠٦/٢].

إذن: فالكلام في الآيات التسع المقصود بها الآيات التي أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا .

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بنى إسرائيل .
ولذلك نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا في آخر السورة بالتحالف بين موسى ﷺ وبنى إسرائيل :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَا خَلْفَ فِيهِ ... ﴾ (١١٠)

[هود]

إذن: فقصة مع بنى إسرائيل تأتي بعد إيتائه الكتاب ، أي : التوراة .
وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى ﷺ مع فرعون فيقول :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (٩٦)

[هود]

أي : سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاً^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنِّي فَرَعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ
وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (١٧)

والملا: هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصدرون المجالس .
ويقال : « فلان مل - العين » أي : لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح ظاهر .

(١) الفكك: فكك الرحمن والأسير : ما فكك به . والمراد به هنا : الهروب [المعجم الوسيط] بصرف .
(٢) الرشيد : هدى النى والفضائل ، وضد لغيره وسوء التدبير . ورشد فلان : أماب وجه الصواب والخير والحق . وحق الرشيد نقي للحق والخير والصواب . [القاموس القويم ١ / ٢٦٥] بصرف .